

دور جماعة الصحة في حماية النازحين والعائدين في العراق

شيرى تراغي

كان تشكيل قوَّات جماعة الصحة في العراق، وهي مجموعة مسلحة خرجت عن سيطرة الحكومة والدولة في العراق، نتاجاً ملائماً للسياسة العسكرية الأمريكية.

شهد العراق في الأعوام الأخيرة تحسناً في الوضع الأمني نتيجة بعض العوامل التي ما زالت تخضع لجدل سياسي كبير. ومع ذلك، من المسلم به على العموم أن قيام مجلس الصحة وتأسيس قوَّات الصحة في العراق كان من أهم العوامل التي قادت إلى الحد من العنف. وتمثَّل جماعة الصحة في العراق تحولاً ملحوظاً في مواقف العشائر السنيَّة من موقف داعم للمسلَّحين الجهاديين إلى موقف متعاون مع القوات الأمريكية في حربها على القاعدة والمليشيات الشيعية. وعزَّز هذا القرار الضغوط العسكرية المتصاعدة على الحركة الجهادية من جهة والقرار العسكري الأمريكي بتسليح أفراد قوات الصحة ودفع الأموال لها أيضاً إلى أن وصل قوام قوات الصحة إلى ما يزيد على مائة ألف مسلَّح. وحتى الآن، ما زال النسيج العام لجماعة الصحة يتكون من الأغلبية السنيَّة، معظمهم من العرب، والعشائر وأبناء الأحياء المحلية.

أما عن النزوح في العراق، فقد كان نتيجة عدَّة عوامل وأسباب أهمها، حسب ادعاء معظم النازحين، التهديد المباشر بالقتل. ومن الأسباب الأخرى الانفلات الأمني، والخوف، والعنف العام. وما أن غاب الأمن بعدَّ واحداً من العناصر الأساسية الدافعة والمسببة للنزوح، يُلاحظ أن تحسن الأمن في مكان الإقامة الأصلي هو السبب الرئيسي لعودة الأفراد والعائلات. وهناك أسباب أخرى للعودة تتمثَّل في توافر العائدين على المأوى أو تمكثهم من العودة إلى ممتلكاتهم المهجورة والنفوذ إلى الخدمات الأساسية كالغذاء والرعاية الصحية وماء الشرب.

دور جماعة الصحة

تمثَّل دور قوَّات الصحة في التعاون مع القوات الأمريكية في الحد من العنف في المناطق التي يوجدون فيها. كما ساعدت قوات الصحة الأحياء الخاضعة لسيطرة القاعدة أو جيش المهدي بهدف توفير السلامة والأمن للمواطنين. كما أقاموا حواجز على الطرق للسيطرة على السيارات وحركة المرور المارَّة بهم، وخفروا الشوارع بالتعاون مع القوات الأمريكية، واعتقلوا من أسموهم "بالمجرمين" والمتورطين بعمليات الاختطاف ومن اكتشفوا أنهم من أتباع تنظيم القاعدة. كما أرشدوا القوات الأمريكية إلى جوانب الطريق المفخخة والعبوات الناسفة.

وخلال بضعة أشهر على تأسيس قوات الصحة، ظهر شعور عام بعودة المياه إلى مجاريها خاصة في ضواحي بغداد وأحيائها حيث تمركزت قوات الصحة. ويمكن القول إن التفجيرات وأحداث العنف قد انخفضت إلى حد كبير، وكذلك عادت الأسواق والمتاجر للافتتاح، ويمكن رؤية الأطفال يلعبون في الشوارع والطرق، كما أُصلحت مصابيح إنارة الشوارع.

وتشكلت قوات الصحة من أبناء المجتمع المحلي ممن وافقوا على الانضمام معاً ومحاربة العناصر التي استهدفت أمن أحيائهم المحلية وأسرههم وأصدقائهم. وينطبق الأمر نفسه على جيش المهدي وغيره من المليشيات التي انبثقت في العراق بعد سقوط نظام صدام حسين. وتمثَّلت الولاءات المعلنة للجماعات في الانتماء للحزب، بالإضافة إلى الولاءات العشائرية والطائفية. أما المواطنين المقيمون في الأحياء الخاضعة للجماعات فقد شعروا بقرابهم ممن اعتبروهم "إخوانهم" و"أبنائهم" وقدموا لهم الدعم والرعاية.

وكما هو الحال بالنسبة للمليشيات المتطرفة، فقد تمثَّلت أهداف جماعة الصحة في تعزيز سيطرتها على الإقليم الموجودة فيه وفرض سلطتها على بعض المناطق المحددة. وبشكل أو بآخر، اغتصبت تلك الجماعة دور الحكومة بل أبعدها أيضاً وأحلت نفسها مكانها. فالإدارة المحلية والجيش العراقي أو الشرطة العراقية إما كانت غائبة عن المشهد تماماً في تلك الأحياء في بغداد أو إنَّها كانت فاقدة السيطرة على تلك الأحياء، بل إنَّها في بعض الأحيان قدَّمت الدعم للمليشيات الشيعية المسلَّحة وغضت الطرف عنهم، رغم ارتكاب تلك المليشيات للجرائم ضد السُّنة. وأدى ذلك بالنتيجة إلى اعتماد المواطنين المحليين على قوات الصحة في حمايتهم. وفي الوقت نفسه عمل زعماء العشائر المترأسين لمجلس الصحة وقواتها على رفع مستوى اهتماماتهم السياسية الطائفية فشكَّلو الأحزاب السياسية وحاولوا رفع السلطة والنفوذ السنيَّين لكبر درجة ممكنة.

جماعة الصحة والنازحين/العائدين

لم تكن قوَّات الصحة، بصورة عامة، معنية مباشرة في تقديم الخدمات أو الرعاية الاجتماعية للمواطنين العراقيين، فقد كان دورهم الرئيسي منحصراً على الأمن.

ويعبِّد ذلك من أهم ما يميز الصحة عن المليشيات المسلَّحة الأخرى التي كانت تعمل على سد الفجوة في مجال تقديم الخدمات الإنسانية للمواطنين والنازحين، نظراً لعجز الحكومة وغياب الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الإنسانية. ولم يكن هدف تلك المليشيات دائماً تحقيق مآرب خاصة بهم. ومع وصول الأزمة في العراق أوجها عامي ٢٠٠٦-٢٠٠٧، لم يكن من المنظمات الإنسانية غير لجنة الصليب الأحمر والهلال الأحمر، والهلال الأحمر العراقي قادراً على العمل بفعالية في تقديم المساعدات الإنسانية.

وقد ساعدت قوات الصحة على استعادة الهدوء والأمن إلى الأحياء التي تمركزوا فيها، فالأمن والهدوء شرط لا بد من تلبسته قبل إعادة الحياة إلى طبيعتها. كما وُظفت قوات الصحة من قبل القوات الأمريكية لقتال القاعدة وجيش المهدي وغيرها من الجماعات المسلَّحة واجتثاثها جميعاً. وتمكنت قوات الصحة أيضاً من انتزاع عدد من الأحياء من قبضة المليشيات المسلَّحة لتقضي بذلك على مصدر التهديد والخوف الطائفي والعربي والديني لدى الأقليات التي كانت تسكن تلك الأحياء.

أما عملية الفصل الطائفي الممارسة فمن الواضح أن قوات الصحة قد شجعتها وكذلك القوات الأمريكية وتمثَّل ذلك في السماح لقوات الصحة، المتكونة في معظمها من السُّنة، من المرور بأمان إلى رفاقهم من السُّنة الآخرين الهاربين من المضايقات والتهديدات والاضطهاد.

وفي بغداد، كان للأمن والهدوء الناتجين عن وجود قوات الصحة ووضعها لحواجز الطرق والسيطرة ودورياتها دورٌ في توفير الفرص أمام المنظمات الإنسانية للدخول الحسي (ولم يكن يُسمَح لها الدخول من قبل) إلى الأحياء المستهدفة الأكثر ضعفاً وتعريضاً وتقديم المساعدة لهم. ومن المعروف عن بعض مجموعات جماعة الصحة أنهم قدَّموا المعلومات المحلية التي يمتلكونها للهلال الأحمر العراقي، منها على سبيل المثال معلومات تحديد النازحين أو منازل العائدين ممن كانوا بحاجة إلى المساعدة.

كما أتاحت الانتماء إلى قوات الصحة الفرصة للنازحين في الحصول على وظيفة جيدة. فما كان يهم القوات الأمريكية خلال عملية "التطهير" وجوب تصافر الجهود بين المواطنين والمليشيات وغيرهم في إيقاف اعتداءات المسلَّحين على الولايات المتحدة، والانضمام إلى القوات الأمريكية ومتعددة الجنسيات لمحاربة القاعدة وغيرها



المفوضية العليا للاجئين / ك بروس

نزحت هذه المرأة في العراق حيث هربت من بلدتها الأصلية بعد وقوع اعتداءات مدمّعة الهاون أودت بحياة كثير من الأطفال.

المدنيين أن يصبحوا مصدرًا للتهديد والخطر على الأمن نفسه، ما يقود إلى قلب موازين الأمور وتقهقر الأوضاع الإيجابية التي أوجدها حضور جماعة الصحة لمصلحة المدنيين السّنة والنازحين والعائدين على حد سواء.

عليها النساء وكذلك الأسر التي ترعاها نساء العائدين. ويُعرف عن جماعة الصحة أنها تخفر المنازل والمناطق التي تضم أسراً ترعاها الإناث وتراقبها وتحميها.

مستقبل جماعة الصحة

بدأت القوات الأمريكية تسليم مسؤولية قوات الصحة تدريجياً إلى الحكومة، واكتمل تحويل المسؤولية في عام ٢٠٠٩. عندها، لم يعد بالإمكان النظر إلى قوات الصحة على أنها من "الجماعات المسلّحة من غير الدول". وقد انتاب الحكومة العراقية شك فيها منذ البداية خوفاً من أن تصبح الجماعة ملاذاً آمناً للمسلّحين أو أنها قد تشكل تحدياً رئيسياً للأطراف المسيطرة على السلطة. ومع أن الحكومة أقرت بأهمية الدور الذي تمثله جماعة الصحة، فما زالت لديها بعض الشكوك وعدم الثقة إزاءها. ولذلك، حتى مع أن الحكومة العراقية وعدت بإدخال ٢٠٪ من قوات الصحة في عناصر الأمن الداخلي في البلاد وتقديم الوظيفة الحكومية لبقية عناصر الجماعة، فما زال العمل في ذلك الاتجاه بطيئاً بل لم تخف الحكومة امتعاضها من ذلك. فالحكومة تجد من الصعب إهمال الحقيقة بأنّ عدداً لا بأس به من جماعة الصحة كانوا من المسلّحين النشطين الذين تورطوا في السابق في مواجهة النظام العراقي الحالي.

من الميليشيات المسلّحة. وبحلول عام ٢٠٠٦، أقرّ القادة العسكريون الأمريكيون أن البطالة كانت عاملاً أساسياً في ارتفاع وتيرة الاعتداء وأن السبب الأكبر الوحيد لذلك كان قرار الأمريكيين في فترة مبكرة بحل الجيش العراقي السابق وتوفير آلاف من المجندين الجدد خلال فترة قصيرة غير معقولة.

كما قدّمت جماعة الصحة حافزاً لكثير من الناس للعودة إلى ديارهم. فهناك كثير من العائدين السّنة ممن يقولون إن مساهمة جماعة الصحة في تأمين الأحياء هي من الأسباب التي دفعتهم للعودة. كما أشاد المواطنون في الأحياء التي تسيطر عليها قوات الصحة وتخفّرها بجهود الجماعة في إعادة الحياة الطبيعية في الأحياء وضمان عودة مأمونة للعائدين وحمايتهم.

ويقول الأشخاص الذين تُحتمل عودتهم أنهم حصلوا على وعود من أفراد عائلاتهم أو أعضاء عشائرتهم المنتمين إلى قوات الصحة بخصوص وضع منازلهم التي نزحوا عنها. كما شاركت قوات الصحة مشاركة مباشرة في تحديد ممتلكات النازحين وحمايتهم، كما شاركت في اجتثاث العناصر أو الميليشيات التي كانت تحتل تلك المنازل التي هجرها النازحون. ولضمان منع بيع أو إيجار هذه البيوت دون معرفة مسبقة من مالكيها ورضاهم فقد كانت قوات الصحة تطلب من المقيمين فيها إبراز إثبات للهوية من المالكين الأصليين قبل السماح لهم بالعودة إلى استخدام ممتلكاتهم.

ومن المثير للاهتمام، تشير المسوحات التي أجريت على المواطنين المحليين بشأن دور قوات الصحة وفعاليتها إلى أنها قد قدّمت الحماية إلى النساء والأطفال والأرامل على وجه الخصوص وكذلك قدّمت الحماية إلى الأسر التي تقوم

الخلاصة

لقد حققت جماعة الصحة الوتر حضوراً في مختلف جوانب المجتمع العراقي منها استمرار كسبها لاحترام زعماء العشائر (خاصة في المناطق الريفية)، ومحاربة العنف الوحشي والاضطراب الذي عمّ الحياة اليومية للمواطنين، وقبول المجتمعات المحلية لأعضاء الجماعة من أبنائهم الذين يقدمون الحماية للمواطنين. وبغض النظر عن الصورة النمطية السابقة لأعضاء الجماعة على أنه سفاحين قتلة، فقد مثّل المسلمون وأعضاء القاعدة في العراق بين عامي ٢٠٠٦ و ٢٠٠٩ بانتمايهم لاحقاً لقوات الصحة دوراً هاماً في استعادة الهدوء والأمن النسبيين في محافظة الأنبار، وكذلك في محافظة ديالى وفي أحياء بغداد التي تمركزوا فيها. كما مثّلوا أيضاً دوراً هاماً لا يستهان به في توفير الحماية الجسدية والمادية للنازحين السّنة والعائدين في المناطق الخاضعة لسيطرتهم.

شيرى تراغي (shirin.jahangir@ka.com.tr)

مدرّبة توجيهية ثقافية سابقة وباحثة قضايا في البعثة الكاثوليكية الدولية للهجرة-تركيا من 2003 إلى 2008. تعمل حالياً مسؤولة بحوث رئيسية في شركة كيه إيه المحدودة للبحوث (http://www.ka.com.tr)

١. قوة عسكرية غير حكومية في العراق أسسها الزعيم الشيعي مقتدى الصدر في حزيران 2003.

٢. كان هناك حضور ونشاط من قبل عدد من المنظمات الأخرى في مختلف المجالات. راجع عدد نشرة الهجرة القسرية الخاص بالعراق على الرابط التالي: <http://www.hijra.org.uk/iraq.htm>